ASJP
Algerian Scientific Journal Platfo

مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 08 العدد: 01 جانفي (2024) ص 248/ 258

تسريد الهوية الفلسطينية استراتيجية للرد بالكتابة في الإبداع الروائي الفلسطيني

Narrating the Palestinian Identity, A Strategy to Respond by Writing in the Palestinian Novelistic Creative Style

سعدي حنان*
مخبر الشعرية الجزائرية
كلية الآداب واللغات
جامعة المسيلة
hanane.saadi@univ-msila.dz

سويسي نصيرة
مخبر الشعرية الجزائرية
كلية الآداب واللغات
جامعة المسيلة
nacera.souici@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال: 2023/11 /15
تاريخ القبول: 2024/01/07

الكلمات المفتاحية:
- ✓ تسريد الهوية الفلسطينية
- ✓ نسق التاريخ
- ✓ نسق المكان
- ✓ النسق الثقافي
- ✓ النسق اللغوي

الملخص:

تتغيا هذه الدراسة الكشف عن تمظهرات تسريد الهوية في الإبداع الروائي الفلسطيني بوصفها استراتيجية للرد بالكتابة على ما تتعرض له هذه الهوية من محاولات للاجتثاث والاقتلاع من طرف المستعمر الصهيوني الذي يتبع سياسات ممنهجة تهدف إلى طمسها بل وإلغائها.

ليتعالق بذلك فعل تسريد الهوية بكينونة ووجود الذات الفلسطينية المقاومة، ولتصبح عبر كل هذا الرواية الفلسطينية نصا واعيا تتحدد عبره معالم الهوية الفلسطينية وتتمثل في ضوئه أنساقها وخصوصياتها الثقافية مشكلة بذلك سرديات مضادة تقوض السرديات الصهيونية وتفكك خطاباتها ومن ثم تقف في وجه مساعيها الحثيثة للقضاء على الهوية الفلسطينية وأسرلة فلسطين.

Article info

Received *15/11/2023*
Accepted *07/01/2024*

Keywords:
- ✓ *narrating the Palestinian identity,*
- ✓ *historical pattern,*

Abstract :

This study aims at revealing the aspects of narrating the identity in the Palestinian novelistic creative style, as a strategy to respond by writing to what this identity is facing, represented in the attempts to eradicate it and uproot it by the Zionist occupation, which follows systematic policies to obliterate it or even abolish it.

For this reason, narrating the identity to mark the existence of the Palestinian resisting identity. Through all this, the Palestinian narrative becomes an awareness-rising text, through which the features of Palestinian identity are determined, and in the light of which its cultural patterns and

* المؤلف المرسل

particularities are represented. This creates counter-narratives that undermine Zionist narratives and dismantle its discourses; therefore, it stands in the way of its hard efforts to eliminate Palestinian identity and Israelize Palestine .

- ✓ *land pattern,*
- ✓ *cultural pattern,*
- ✓ *linguistic patter*

. مقدمة:

في إطار ما تتعرض له الهوية الفلسطينية من محاولات للاجتثاث والاقتلاع من طرف المستعمر الصهيوني، الذي يتبع سياسات ممنهجة تهدف إلى طمسها بل وإلغائها تبرز لنا الرواية الفلسطينية وهي تحمل على عاتقها مهمة التصدي لهذه السياسات، متخذتا من تسريد الهوية استراتيجية للمواجهة والرد عليه بالكتابة كفعل وجودي وثقافي مقاوم، يروم في هذا الصدد بناء وتشكيل سرديات مضادة، تحتفي بأنساق الهوية الفلسطينية وخصوصياتها الثقافية، بغية تقويض السرديات الصهيونية وتفكيك خطاباتها ومن ثمة الوقوف في وجه مساعيها الحثيثة للقضاء على الهوية الفلسطينية وأسرلة فلسطين.

وعلى هذا الأساس جاء الإبداع الروائي الفلسطيني في شكل مقاومة لا تحيد عن توجه الشعب الفلسطيني المضطهد بل تتواطؤ معه، كاشفتا عن كوجيتو الروائي الفلسطيني الذي فحواه "أنا أسرد هويتي الفلسطينية إذن أن موجود"، ليتعالق بذلك فعل تسريد الهوية بكينونة ووجود الذات الفلسطينية المقاومة، ولتصبح عبر كل هذا الرواية الفلسطينية نصا واعيا تتحدد عبره معالم الهوية وتتمثل في ضوئه أنساقها.

أولا: في مفهوم الهوية

يعد البحث في مجال الهوية من أعقد المجالات وأكثرها اتساعا وتشعبا وهو أمر بديهي إذا علمنا أنه اكتسح حقولا علمية ومعرفية عديدة منها: الفلسفة، العلوم السياسية، علم النفس، علم الاجتماع، الأدب، النقد، الفنون، الدراسات الثقافية والأنثروبولوجية ...

وما يلفت الانتباه هاهنا أن معضلة المفهوم هي أول براديغم تطرحه هذه الحقول، وقد أقر في هذا الشأن **غوتلوب فريغه (Gottlob Frege)** أن الهوية -باعتبارها مفهوم- لا تقبل التعريف ذلك لأن كل تعريف هو هوية في حد ذاته" (حسنين، 2013، صفحة 312). وعلى شاكلته ذهب **بنديكت أندرسون (Benedict Anderson)** إلى القول بأن "الهوية فكرة خيالية لا تقبل التجسيد أو التعريف، فالهوية مفهوم أنطولوجي وجودي يمتلك خاصية سحرية تؤهله للظهور في مختلف المقولات المعرفية، لكنه مثلما ما يتمتع بدرجة عالية من التجريد والعمومية تتفوق على مختلف المفاهيم الأخرى المقابلة والمجانسة له، يمتلك طاقة كشفية لفهم العالم وما يتضمنه من كينونات الأنا والآخر. لذا فرض هذا المفهوم نفسه في الأدبيات المعاصرة بشكل كبير" (حسنين، 2013، صفحة 312)، تباينت فيه آراء الباحثين وتوجهاتهم حينا، وتعاضدت حينا آخر، ليتضح عبر ذلك أن "مفهوم الهوية لا يشكل موضوع إجماع في تعريفه وغاياته" (عبد الرحمن ، 2015، صفحة 22)ومع ذلك سنسعى إلى تقديم مفاهيم تزيل هلامية هذا المصطلح وتبدد اللبس والغموض الذي يعتريه، مراعين في ذلك ما يتماشى ودراستنا.

نستهلها بتعريف أليكس ميكشللي الهوية بقوله هي" منظومة من المعطيات المادية والمعنوية والاجتماعية، التي تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفية، ولكن لا يمكن لمثل هذه المنظومة أن تكون في حيز الوجود مالم يكن هناك شيء ما يعطيها وحدتها ومعناها ويتمثل ذلك في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها". (ميكشيللي، 1993، صفحة 129)

وعليه جاز لنا القول أن الوعي بالذات يعني الوعي بالهوية وبمجموع الانتماءات فهوية شخص ما على سبيل المثال هي انتماء لجنس معين، وإلى أسرة ونسب ما، ثم إلى جماعة بشرية تعيش في فضاء جغرافي معلوم لها أنساق مؤتلفة توحدها كالتاريخ، الدين، اللغة والثقافة. وقد حدد عالم النفس الأمريكي مفهوم الهوية التي هي حسب رأيه" أنماط السمات التي يمكن

تمييزها أو استنتاجها، والتي تميز إنسانا في نظر نفسه والآخرين" (ميكشيللي، 1993، صفحة 129) فالهوية تتعلق بالسمات والخصائص المائزة التي تميز كلا من الذات والآخر وبموجبها تتحدد الذات ويتحدد الآخر.

في ضوء هذا نخلص إل أن الهوية هي "مجموع التصنيفات الإنتمائية التي يرى بواسطتها الإنسان نفسه ومحيطه وهي تضم التصنيفات القائمة على اللغة والدين والعرق والجنس والأدب والموسيقى والعادات والتقاليد والوطن والتاريخ والطبقة والمهنة ...الخ وباختصار جميع الانتماءات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية وما إلى ذلك من التصنيفات التي لها تأثير-لاشعوري غالبا- على سلوكيات الإنسان وتصرفاته تجاه الأفراد والمجتمع". (الكوخي، 2014، صفحة 13)

ونظرا لصعوبة تحديد الهوية حاول **أليكس ميكشيللي** (**Alex mucccheilli**) في هذا السياق أن يحدد جملة من العناصر التي من خلالها تتحدد هوية فرد أو جماعة أو مجتمع مصنفا إياها-العناصر-في مجموعات تمثل فئات العناصر الخاصة بالهوية وهي كالآتي: (ميكشيللي، 1993، الصفحات 19-20)

"1- عناصر مادية وفيزيائية وتشتمل على:

(الحيازات، القدرات، التنظيمات المادية، الانتماءات الفيزيائية)

2- عناصر تاريخية وتتضمن:

(الأصول التاريخية، الأحداث التاريخية الهامة، الآثار التاريخية)

3- عناصر ثقافية نفسية تحتوي:

(النظام الثقافي، العناصر العقلية، النظام المعرفي)

4- عناصر نفسية اجتماعية تضم:

(الأسس الاجتماعية، القيم الاجتماعية، القدرات الخاصة بالمستقبل)

هذه هي العناصر التي يرى "**أليكس ميكشيللي**" أنها كفيلة بأن يعرف الإنسان بها نفسه أو كل من يمثل له آخر سواء كان فردا أو جماعة ينتمي إليها، أو لا وقد قام بشرحها في كتابه "الهوية" قائلا "إنه لمن المؤكد أن تعريف هوية موضوع ما يجب أن ينطلق من المعايير المذكورة سابقا. وتعد هذه المعايير بحق كافية لتحديد هوية جماعة أو فرد، وذلك بالقياس إلى جماعة فرد آخر. وذلك يعني أنه يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار عندما يراد تعريف موضوع ما السمات الأساسية المتجانسة من جهة، والسمات التي يمكنها التأكيد على خاصة التمايز من جهة أخرى" (ميكشيللي، 1993، صفحة 20).

ثانيا: الهوية الفلسطينية (التبلور والخصوصية)

"إذا كانت الهوية تعرف عادة، كما أسلفنا، بعناصر متعددة، مثل اللغة والثقافة والدين والوعي الجماعي ومعايير الحياة الاجتماعية المتوارثة، فإن تعريف الهوية الفلسطينية لا يقتصر على هذه العناصر، إذ إن العنصر الحاسم فيها والذي يعيد تعريف هذه العناصر كلها في بوتقة خاصة، هو التجربة المديدة لاستعادة هويته المسروقة، فتشتت الفلسطينيين خارج أرضهم وتشرذمهم داخل وطنهم بفعل الاحتلال يجعلان سؤال الهوية وتجلياتها معقدا ومرتبطا بتجارب التهجير والمنفى والهجرة والنضال من أجل العودة والصمود على الأرض تحت هيمنة الاحتلال والاضطهاد" (المالكي، 2015، صفحة 158) وقد جعلها هذا تكتسب خصوصية مائزة أساسها "تنامها تاريخيا عبر الضدية المباشرة مع المشروع الصهيوني وما ارتبط به من محاولات الطمس والتهميش والإنكار لوجود شعب بأكمله" (المالكي، 2015، صفحة 158).

ويؤكد الباحثون في هذا المجال أن تبلور الهوية الفلسطينية وتطورها ارتبط "باستحضار الآخر باعتباره نقيضا للأنا (أو للذات) ...إذ بالرغم من وجود الشعب الفلسطيني على أرض فلسطين التاريخية (بحدودها الانتدابية)، على الأقل منذ خمسة آلاف سنة، فإن حديثه عن هويته الوطنية لم يتبلور إلا بفعل صدمة قاسية جسدها المشروع الاستعماري الغربي. فمواجهة مخططات الاستعمار والاحتلال الأجنبي التي أخذت في البداية شكل انتداب بريطاني قبل أن تنتهي مشروعا صهيونيا

قائما على أساس اجتثاث شعب من أرضه وإحلال جماعات من المستوطنين تم غرسهم في هذه الأرض بقوة الحديد والنار بعد جلبهم من مناطق العالم الأربع، اقتضت تأكيد الذات في خضم مواجهة الآخر" (القلقيلي و أبو غوش، 2012، الصفحات 17-18)

فحين وجد الفلسطينيون أنفسهم مهددين أنطولوجيا، ومعرضين لمحاولات الاجتثاث الهوياتي برزت هويتهم بشكل ملحوظ، ولا يعني هذا التكريس لفكرة أن الهوية الفلسطينية تبلورت مع الاستعمار الصهيوني وفقط أو أنها لم تكن لتتميز عن باقي الهويات العربية لولا وجود اللجوء والشتات الفلسطيني في الدول العربية، بقدر ما يعني أن الهوية الفلسطينية تبلورت في شكل مقاومة مناضلة لإثبات الوجود الفلسطيني والدفاع عنها، وبالتالي فهي هوية نضالية في جوهرها.

وقد ناقشت بعض الدراسات تبلور الهوية الفلسطينية، في إطار الرد على الأدبيات الصهيونية التي تدعي أن الهوية الفلسطينية هوية طارئة، نتجت كردة فعل على المخططات الصهيونية، في هذا السياق "يشير "رشيد الخالدي" إلى أن الهوية الفلسطينية تبلورت بشكل واضح بعد النكبة، إلا أنها مرت بمراحل تطور كثيرة قبل ذلك بزمن، كما كانت هوية متداخلة مع الهوية العربية والإسلامية، وأن تعدد الولاءات لدى الفلسطيني في ذلك الوقت لم يكن متناقضا. كما أن تبلور الهوية الفلسطينية وتميزها من الهوية المصرية أو السورية مثلا لا يعنيان الانفصال عن الهوية العربية، كما يشير "ماجد كيالي"، كما لا يعني تنامي الشعور بالانتماء إلى فلسطين مع بداية المخطط الصهيوني أن الهوية الفلسطينية مرتبطة بهذا الصراع كما طرح "أباهر السقا" على نحو ينسجم مع ما تجادل به هذه الدراسة من أن تبلور الهوية الفلسطينية بشكل واضح بعد حرب1948 يأتي كتمييز لها، وهو ناتج من الخصوصية التي فرضها الاحتلال، فهي بذلك لا تتناقض مع الهويات الأوسع وإنما تعزز هويتها الوطنية باعتبارها إحدى أدوات النضال ضد الاحتلال" (الشوبكي، صفحة 191).

ثالثا: سياسات المستعمر الصهيوني للقضاء على الهوية الفلسطينية

لقد اتبع المستعمر الصهيوني منذ بداية مشروعه الكولونيالي سياسات ممنهجة جعلت الهوية الفلسطينية تكون في كل مرة أمام مآزق وتحديات كبيرة، مازلنا نشهدها ونشهد تعاظمها إلى يومنا هذا، فالمستعمر الصهيوني يجدد في كل مرة أساليبه وأدواته بغية دثر الهوية الفلسطينية، وتأكيد سردياتها التي من أهمها " «أن فلسطين وطن بلا شعب لشعب بلا وطن » »الشعب الفلسطيني وطنه الأردن وبالتالي هويته أردنية » «الشعب الفلسطيني جزء من الأمة العربية ولديه عشرون دولة ليقيم فيها» وغيرها من الإدعاءات التي ليس آخرها «هوية الشعب الفلسطيني مزيفة»" (القلقيلي و أبو غوش، 2012، صفحة 14) .

ولتكريس ذلك وتحقيق هدفه الأسمى المتمثل في القضاء على الهوية الفلسطينية جملة وتفصيلا كما سبق وذكرنا قام باتباع سياسات ممنهجة منها:

سياسة تزوير وتحريف التاريخ: حيث تم "تحويل المتحف الفلسطيني إلى مقر لدائرة الآثار الإسرائيلية ونهب ما به من آثار، والقضاء على كل أثر كنعاني فلسطيني...كما تمت سرقة تاج السيدة العذراء من كنيسة القيامة، وحفر الأنفاق أسفل الجدار الجنوبي للمسجد الأقصى وتعريض جزء كبير منه لخطر التصدع والانهيار.... وتم تدمير العديد من المباني التاريخية ...فضلا عن قيام إسرائيل بتشويه التاريخ الفلسطيني عن طريق إجراء حفائر خاطئة الغرض منها طمس الهوية الفلسطينية وتدعيم الوجود الصهيوني" (حواس، 2007، صفحة 161).

سياسة سرقة التراث الفلسطيني ونسبه إلى التراث اليهودي: ومن أمثلة ذلك أن "الزي الفلسطيني والدبكة الشعبية التي باتت تقدمها إسرائيل كجزء من موروثها الثقافي، وشهدت الفترة الأخيرة تزايدا في هذا النهج (الشوبكي، صفحة 203) إلى جانب قيامها "بحملات ممنهجة لشراء الآثار الفلسطينية، وقد استغلت إسرائيل عدم وجود مؤسسات فلسطينية تحمي هذه

الآثار وجندت كثيرا من العمال للبحث عن الآثار بإغراءات مالية في ظل جهل هؤلاء العمال بأهمية مثل هذه القطع الأثرية" (الشوبكي، صفحة 204).

سياسة تغيير معالم الأمكنة وأسمائها: "حيث دمرت وأزالت 428 قرية بشكل كامل... وقامت إسرائيل أيضا بإنشاء مدن وقرى جديدة مكان تلك التي أزيلت وفي أماكن جديدة وأسكنت فيها مهاجرين يهودا، وأطلقت على تلك القرى والمدن مسميات عبرية جديدة في محاولة منها لإيجاد هوية يهودية في مقابل الهوية الفلسطينية التي تتعرض لمعركة وجود"(الشوبكي، صفحة 203)

سياسة التطهير العرقي الصامت وذلك من خلال:

- سياسة تغيير التركيبة السكانية في فلسطين من خلال جلب اليهود المشتتين في أنحاء العالم ومصادرة الأراضي.
- سياسة تشتيت الفلسطينيين وتهجيرهم قسرا من بلادهم إلى دول العالم أملا بانصهارهم في هويات بديلة وإضعاف حسهم الانتمائي.
- سياسة تشتيت الفلسطينيين في الداخل وعزلهم جغرافيا "إذ عاش أهالي الضفة الغربية وقطاع غزة وفلسطينيو 1948 وفلسطينيو الشتات من دون تواصل اجتماعي أو اقتصادي يضمن التماسك بينهم، وبرز الأخطر في ذلك حين ربطت الضفة الغربية بالأردن وربط قطاع غزة بمصر، في محاولة لإجبار الفلسطينيين جميعا على الانصهار في المجتمعات العربية المحيطة، ظنا بأن الانسجام الثقافي والديني واللغوي بين الفلسطينيين والعرب قد يحقق لإسرائيل تلك الغاية، أما فلسطينيو1948 فحاولت التضييق عليهم بشتى السبل كي تجبرهم على الانسلاخ عن هويتهم الوطنية" (الشوبكي، صفحة 202).
- **سياسة التطهير العرقي المعلن:** وهو ما تقوم به اليوم (أكتوبر2023) إسرائيل في قطاع غزة من قصف، وتدمير، وإبادات جماعية باستعمال مختلف الأسلحة المتطورة، مستهدفة المدنيين والبنية التحتية لقطاع غزة بالخصوص.

وعلى ضوء هذا نتوصل إلى الوعي بأن الهوية الفلسطينية تواجه العديد من التحديات والمهددات، الأمر الذي يجعل التوجه نحو تعزيزها وتأكيدها واجبا على كل فلسطيني حسب ممكناته ووسائله المتاحة، ويبدو في هذا السياق أن الروائي الفلسطيني أدرك ذلك وعلى هذا الأساس اتجه نحو تسريد الهوية الفلسطينية كاستراتيجية للرد بالكتابة على المستعمر الصهيوني وسياساته الساعية للقضاء عليها، وبالتالي فهو لم يغفل عن بلورة هذه الهوية وترسيخها وتعزيزها في رواياته، سواء كان داخل الأرض المحتلة أو في الشتات.

رابعا: اتجاه الرواية الفلسطينية نحو تسريد الهوية والرد بالكتابة

إن المتتبع لتاريخ الرواية الفلسطينية منذ أربعينيات القرن الماضي، سرعان ما يلحظ اتجاهها نحو تسريد الهوية، الذي يتراءى لنا من خلال حرصها على الاحتفاء بأنساقها التاريخية والحضارية والثقافية والاجتماعية واللغوية وقد أشار "جريس نعيم خوري" في كتابه "هوية الأدب وأدب الهوية-دراسات في الفلكلور والأدب الفلسطيني" أن الأدب الفلسطيني بعد نكبة 1948 هو أدب الهوية بلا أدنى شك" (عليان، 2022، صفحة 33) وهو ما جسدته الرواية الفلسطينية منذ مراحلها الجنينية إلى غاية يومنا هذا، لتؤكد بذلك أن الروائي الفلسطيني مقاوم شأنه شأن المقاتل في الميدان وما اغتيال المحتل للأدباء إلا خير دليل على ذلك، فالروائي يدافع بقلمه عن هويته وقضيته، يرد بالكتابة على كل الادعاءات والمحاولات الساعية إلى طمس هويته الأم، مؤكدا على وجود هوية فلسطينية تشهد عليها الرواية وتختزنها بين دفتيها لتبقى ذاكرة حية تضمن لهذه الهوية الدينامية والاستمرارية من جهة، وتفضح ما تعانيه من ويلات وانتهاكات من جهة أخرى.

ويعد "**غسان كنفاني**"، "**جبرا إبراهيم جبرا**"، "**إبراهيم نصر الله**"، "**إيميل حبيبي**"، "**سحر خليفة**"، "**أحمد رفيق عوض**"، "**حليم بركات**"، "**لبانة بدر**"، "**رشاد أبو شاور**"، "**حبيب هنا**"، "**يحي يخلف**"، "**زكريا محمد**"، "**غريب عسقلاني**"، "**عمر حمش**"، "**عبد الله تايه**"، "**عبد الكريم السبعاوي**"، "**جمال بنورة**"، "**خضر محجز**"...من أبرز الروائيين الذين سلكوا هذا الاتجاه ليس من باب أنه ترف إبداعي، بل من باب أنه كانت هناك أسباب وبواعث دفعتهم إليه، وجعلت رواياتهم مسكونة

بهاجس مقاومة العدو الصهيوني والحفاظ على الهوية والنضال من أجل بقائها، وفيما يلي سنحاول التعرف على أهم الأسباب التي كانت خلف ذلك.

خامسا: بواعث تسريد الهوية الفلسطينية في الإبداع الروائي الفلسطيني

- وعي الروائي الفلسطيني بأن الهوية الفلسطينية نضالية في جوهرها وأنها قد تصبح مهددة بالإلغاء إذا تخلت عن هذا الجوهر.
- التزام الروائي الفلسطيني بقضيته واعتبار الالتزام بها واجبا أخلاقيا ووطنيا.
- رغبة الروائي في تعزيز شعور الانتماء لفلسطينيي الداخل والخارج(الشتات).
- الخوف من ضياع الهوية الفلسطينية ونجاح المستعمر الصهيوني في إلغائها.
- التعريف بالهوية والقضية الفلسطينية والسعي إلى جعلها تتجاوز الحدود الوطنية والقومية.
- جعل الرواية معلما تاريخيا وإنسانيا خالدا يشهد على وجود الهوية الفلسطينية.
- التصدي لسياسات المستعمر التي تستهدف الهوية والرد عليه بالكتابة كفعل ينخرط به الروائي في عملية المقاومة.

سادسا: تمظهرات تسريد الهوية الفلسطينية في الإبداع الروائي الفلسطيني

يمثل تسريد الهوية الفلسطينية في الإبداع الروائي الفلسطيني استراتيجية للرد بالكتابة على المستعمر الصهيوني، وهو ما أفضى إلى الاحتفاء بجملة من الأنساق الهوياتية التي جعلت الإبداع الروائي الفلسطيني عبارة عن سرديات مضادة، قوضت سرديات المحتل وفككت خطاباته، وفضحت سياساته، ومن بين الأنساق التي اعتمد عليها الروائي في تسريده للهوية الفلسطينية: نسق التاريخ، نسق المكان، النسق الثقافي، النسق اللغوي وهو ما سنحاول رصده فيما يلي:

نسق التاريخ:

شهد النسق التاريخي حضورا كبيرا في الإبداع الروائي الفلسطيني الذي استند إليه في عملية تسريده للهوية الفلسطينية، وذلك لما له من أهمية في إثباتها وتأكيدها ومن ثمة دحض وتفنيد كل المزاعم والادعاءات القائلة بالحق التاريخي لبني صهيون في فلسطين وأسبقية وجودهم، وقد استحضرت في هذا السياق العديد من الروايات تاريخ فلسطين القديم والوثني الذي يعود إلى ما قبل التاريخ وهو ما أشار إليه "**أحمد رفيق عوض**" في روايته "**قردون**" "حين عثر الشيخ عثمان العظيم وحفيده زياد على تمثالين لآلهة كنعانية تعود إلى الوثنية مدفونة في أرضهم، وقد استثمر عوض ذلك التاريخ لكي يؤكد هوية الأرض التي يقيم عليها الفلسطيني الآن، حيث كان التمثالان يمثلان بعلا وعشتروت وهما آلهة الفلسطينيين القدماء". (أبو زينة، 2011، صفحة 868)

واشتغل على تحقيق الهدف نفسه "**حبيب هنا**" في روايته "**هرم كنعان**" التي من خلال قراءة العنوان كعتبة نصية أولى وبنية مختزلة للدلالة العامة للمتن، يمكن أن نستشف اتجاه هذه الرواية نحو تأكيد العمق التاريخي للهوية العربية الفلسطينية ولوجودها على أرض فلسطين، من منطلق أن فلسطين أرض كنعان وبالتالي فالجذور التاريخية للوجود العربي الفلسطيني متوغلة في تلك الرقعة منذ ما قبل التاريخ، وباختصار يمكن القول أن "حبيب هنا" يسعى في هذه الرواية إلى "أن يثبت الهوية الفلسطينية، والتاريخ الفلسطيني، ومساهمته في الحضارة البشرية، وهو دور كما يرى لا يقل عن حضارة الفراعنة ومساهماتهم، وهو يحذر بصورة غير مباشرة من محاولات نهب هذا التاريخ، وتذويب الهوية وسرقة عناصرها ومكوناتها". (أبو زينة، 2011، صفحة 870)

ولم تكتف الرواية الفلسطينية بالعودة إلى التاريخ القديم إذ مثل التاريخ الحديث هو الآخر مرجعا بارزا للرواية الفلسطينية التي تعانق فيها التخييل مع التوثيق بطريقة إبداعية جعلت النفعي يتماهى مع الجمالي ليكتب لنا نصا مخاتلا، يحفظ الذاكرة التاريخية للهوية الفلسطينية، ويضمن لها الخلود كخلود اليونان عبر "الأوديسا" أو "الإلياذة" ومن بين الروايات نذكر على سبيل المثال لا الحصر رواية **"زمن الخيول البيضاء" "لإبراهيم نصر الله"** التي ارتكزت في بنائها على النسق التاريخي، وهو ما يقره كاتبها الذي صرح من بداية الرواية (ص05) أنه بدأ العمل عليها منذ 1985م وأنه أنجزها على جمع الشهادات الشفوية الحية للفلسطينيين، الذين عاشوا في فلسطين ثم اقتلعوا من وطنهم وأصبحوا في المنافي، كما أشار في نهاية الرواية (ص510) إلى اعتماده على كثير من المذكرات والكتب والتي ذكرها جميعا وبالتالي فرواية "زمن الخيول البيضاء" قامت على خطاب تاريخي رسمي وخطاب تاريخي شعبي يسرد لنا تاريخا من الهوية الفلسطينية، حافظا بذلك الذاكرة الجماعية والهوية الجمعية للذات الفلسطينية بإبداع منقطع النظير.

وعلى هذا الأساس "وصفتها الناقدة العربية "سلمى الخضراء الجيوسي" بأنها (الإلياذة الفلسطينية)" (كامل، 2023) ولعل هذا ما يصل إليه كل قارئ، إذ سرعان ما يجد نفسه أمام رواية ملحمية تاريخية كبيرة، تبدأ من أواخر عصر الدولة العثمانية ونهاية حكمهم في فلسطين وتستمر لتشمل فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، وتنتهي بنهاية حكم الإنجليز في فلسطين وتسليمها للصهاينة وضياعها إبان النكبة، وهو ما يعد تسريدا للهوية الفلسطينية في بعدها ونسقها التاريخي.

نسق المكان:

حظي نسق المكان في الرواية الفلسطينية بمكانة محورية، يلاحظ فيها التمركز السردي على وجه الخصوص لفلسطين بقراها ومدنها وأحيائها وشوارعها ومعالمها وتفاصيلها التي تعبر عن خصوصية الهوية الفلسطينية، مثبتتا بذلك صحة مقولة أن "العلاقة بين الهوية والمكان هي علاقة تماه في أعلى درجاتها الممكنة، فالهوية تتجسد وتتمفصل وتتراءى وتتمشهد في صورة المكان دائما، مثلما المكان يؤسس هويته كي يعيش ويدوم، إذ لا هوية بلا مكان ولا مكان بلا هوية" (السامرائي، 2015، صفحة 43).

ولأن المحتل الصهيوني تفطن إلى التعالق الموجود بين الهوية والمكان، بدأ مشروعه في التهديم والتشويه والتهويد، على أمل أن القضاء على الهوية الأولى للمكان، طريق للقضاء على هوية الذات الفلسطينية، ومفتاح لإضعاف وإرباك حسها الانتمائي، واستراتيجية يثبت بها وجوده وسيطرته خاصة للأجيال القادمة، وفي خضم هذا قام الروائي الفلسطيني بالرد بالكتابة وكله حرص على إبقاء المكان الوطن بمعالمه وتفاصيله وبالأسماء الحقيقية لأحيائه وشوارعه حاضرا في إبداعه، وحيا في الذاكرة الفلسطينية ومنعشا لها، فحملت العديد من الروايات أسماء أماكن فلسطينية حقيقية من بينها رواية **"عائد إلى حيفا" "لغسان كنفاني"، "نجوم أريحا" "لليانة بدر"، "رأيت رام الله" "لمريد برغوثي"، بحيرة وراء الريح" "ليحي يخلف" "قناديل ملك الجليل" "لإبراهيم نصر الله"...**

هذا وقد تجاوز توظيف نسق المكان الحقيقي في الإبداع الروائي الفلسطيني حدود العنوان إلى المتن، فجاءت أغلب الروايات الفلسطينية طافحة بوصفه وتوثيقه وجعله بؤرة للحكي، ومسرحا للأحداث، وكأنما تؤصل للهوية الفلسطينية ولصمودها عن طريق المكان وبوعي معرفي مدرك أن مأساة الفلسطيني هي أولا وقبل كل شيء مأساة مكان، وصراعه من أجل المكان، واحتلاله من أجل المكان، ولطمس هويته يُسْتَهْدَفُ المكان ... فلا غرو إذا أن يعيد الروائي الفلسطيني تشييده، وترميمه، وإحياءه، واستحضاره كحقيقة داخل العوالم السردية الرحبة للرواية.

وهو ما تبنته أغلب الروايات الفلسطينية منها **"عصا الراعي" "لزكريا محمد"** حيث سمى المواقع والأمكنة بأسمائها الحقيقية وعند **"غريب عسقلاني"** في **"نجمة النواتي"** حين حرص على ذكر أماكن يافا بأسمائها الحقيقية ...وهذه الظاهرة حاضرة كذلك في **"حزيران قديم" "لعمر حمش"** وفي **"اقتلوني ومالكا" "لخضر محجز"**. ودارت أحداث رواية **"وجوه في الماء**

الساخن" "لعبد الله تايه" في مخيم جباليا بغزة وبعض أحياء غزة الحقيقية ودارت أحداث "**ربيع حار**" في أمكنة حقيقية في مدينة نابلس ورام الله وجنين كما جعل "**جمال بنورة**" أحداث روايته "انتفاضة في بيت لحم ومحيطها وقراها حيث يقيم الروائي وجعل "**يحيى يخلف**" أحداث روايته "**نهر يستحم في البحيرة**" في أمكنة حقيقية تمتد من غزة إلى القدس إلى سمخ إلى تل أبيب فالقدس ودارت أحداث "**نجوم أريحا**" في أريحا والقدس ..." (أبو زينة، 2011، الصفحات 751-752).

النسق الثقافي:

أمام جنوح الروائي الفلسطيني نحو تسريد الهوية الفلسطينية، وجعلها استراتيجية للرد بالكتابة على المحتل الصهيوني قام باستثمار النسق الثقافي، وذلك انطلاقا من وعيه بأن "العلاقة بين الثقافة والهوية علاقة تلاحم، وكل خلخلة أو اختراق للثقافة يؤدي إلى إضعاف لمكونات الهوية، وقد يؤدي إلى تفتيت لها في المستقبل، مما يعني أن المساس بأحد عناصر الثقافة أو التأثير عليها هو مساس بـ"الهوية". (الفريجات، 2019، صفحة 52)

على ضوء هذا أصبحت الرواية الفلسطينية منجزا ثقافيا بامتياز، تنصهر في بوتقته أنساق الثقافة الفلسطينية، وتعرف عبره عن خصوصيتها وتميزها عن باقي الشعوب والأمم وقد كانت الثقافة الشعبية إحدى تمظهرات النسق الثقافي المهيمن على الإبداع الروائي الفلسطيني، وللتوضيح نشير إلى أن الثقافة الشعبية "هي المادة المشكلة للثقافة المتوارثة التي تضم الممارسات والأفكار وأشكال التعبير والعادات والتقاليد في مجتمع ما... اكتسبها الفرد من الجماعة التي ينتمي إليها لأنها تنتقل من جيل إلى جيل" (بورايو، د ت، صفحة 41).

ومما لا مراء فيه أن "لكل ثقافة نظامها الدلالي الخاص، وأشكالها التي تعبر عبرها عن تلك الدلالات، فاللباس مثلا هو عامل ثقافي، حين يرتبط في شكله وحجمه ولونه وطريقة ارتداءه بثقافة معينة نفس الشيء بالنسبة للطعام، فهو في حد ذاته يمثل نظاما ثقافيا يحتكم إلى قواعد ثقافية تفرضها المؤسسة الاجتماعية وليس غريبا أن إسرائيل مثلا في إطار حرب الذاكرة التي تقوم بها ضد فلسطينيين، ادعت أن بعض الأطعمة الفلسطينية هي في الأصل تنتمي إلى المطبخ اليهودي" (بن علي، د ت، صفحة 175). وأن الزي الفلسطيني والدبكة الشعبية جزء من موروثها الثقافي.

وبالتالي فاستدعاء الروائي الفلسطيني لثقافته الشعبية في رواياته ليس اعتباطيا، وإنما هو استجابة لما تواجهه هويته الأم المهددة بالمحو والتذويب والإدماج من قبل الآخر، الذي يشن عليها حربا ثقافية شعواء، جعلته يكتب ثقافته لتكون تعبيرا حيا عن وجود وكينونة هذه الذات وهذه الهوية، ومن ضمن أنساق الثقافة الشعبية التي احتفت بها الرواية الفلسطينية:

نسق العادات والتقاليد:

ويضم مجموع السنن السلوكية، والأعراف المتوارثة التي تمثل المشترك الثقافي الذي يوحد المجتمع، ويعزز روابطه، وبها يستميز عن غيره من المجتمعات. وقد سلط الروائي الفلسطيني الضوء على مختلف عاداته وتقاليده من بينها: "زواج الأقارب وكراهية تزويج بناتهم للغرباء، تزويج الأبناء بعد موسم الحصاد، الاحتفال بحمام العروس في الحمامات العامة، نقش الحنة على أيدي النساء في الأعراس... وكل هذه العادات والتقاليد كانت حاضرة في رواية "**العنقاء" للسبعاوي"** (وائل و بدر، 2017، صفحة 226، 228) إلى جانبها نجد حضور عادات الجيرة الفلسطينية في رواية "**برقوق نيسان" "لغسان كنفاني"** ونجد تقاليد الزواج وتحديد المهر للعروسة في المجتمع الفلسطيني في روايته **"ما تبقى لكم"** (حاج علي، 2016-2017، صفحة 64) وتطالعنا "عادات وتقاليد الاحتفال بالمولود الجديد في رواية "**خريف يطاول الشمس" "لنزهة أبو غوش"** كما نجد في رواية "**أعواد ثقاب" "لبشرى أبو شرار"** تقاليد مراسم العزاء أما في رواية **"رحلة ضياع" "لديمة السمان"** عادات استقبال أهل الشهيد لابنهم" (خليل سياج، 2022، صفحة 139، 140، 144).

نسق اللباس التقليدي:

يعد اللباس التقليدي من الرموز المادية المتوارثة الدالة على هوية الشعوب وتاريخها وحضارتها، والمعبر عن ثقافتها وأصالتها، وقد حرص الروائي الفلسطيني على توظيفه والإشارة إليه في أعماله الروائية، فنجد عل سبيل المثال حضورا مكثفا له في "ثلاثية **عبد الكريم العيساوي (العنقاء، الخل الوفي، الغول)** التي أشار فيها إلى كثير من الأزياء الفلسطينية التراثية منها القنباز، الجبة، الغبانية والساكو، الطربوش والعمامة، الهندية..." (وائل و بدر، 2017، صفحة 205)، كما استأثرت الكوفية الفلسطينية والتي هي قطعة قماش تأتي باللون الأبيض والأسود بمكانة مميزة ومهمة وذلك لكونها "من أكثر الأزياء اقترانا بالفلسطينيين وهويتهم ، فقد تناقلوها من جيل إلى آخر، بدء بالفلاح الذي كان يعتمرها لتقيه من الحر والبرد أثناء ممارسة الزراعة، وصولا إلى ارتداءها بوصفها رمزا للمقاومة الفلسطينية، الجدير بالذكر أن ارتداءها ...وصل إلى مناصري القضية الفلسطينية" (المصدر، 2023) ومن الروايات التي وظفتها رواية "**نساء بروكسيل" "لنسمة العكلوك"** وغيرها من روايات.

نسق اللغة العامية:

يقر الباحثون في مجال دراسة الرواية الفلسطينية بأن هذه الأخيرة "عرفت ثلاث مستويات لغوية: مستوى إبلاغي: يتعلق بالوظيفة الأولى للغة وهي الاتصال والآخر تخيلي: يجمع بين الأدبية والواقعية بقدر كبير من التوازن والوعي للحدود الفاصلة بينهما وثالث: يتصل بالمنطوق الشعبي اليومي وهو مغرق في خصوصية اللهجة الفلسطينية المحكية" (كتانة، 2017، صفحة 272) ولأن المستوى الأخير هو مجال دراستنا نشير إلى أنه ليس حكرا على الرواية الفلسطينية، إذ عمد بعض الروائيين إلى توظيف وتطعيم رواياتهم بلهجاتهم المحلية، من منطلق تجريبي يهدف إلى تحقيق الجمالية وإضفاء مسحة الواقعية وأحيانا يكون بهدف الالتزام بضرورة تحقيق التواؤم بين الشخصية ومستوى لغتها.

لكن الظاهر أن الروائي الفلسطيني تجاوز هذه الأهداف نحو هدف أسمى مرتبط أساسا بالتزامه بتسريد هويته الفلسطينية، وتمثله لخصوصياتها الثقافية لمواجهة المحتل الصهيوني الساعي إلى قطع كل وشائج الترابط التي من شأنها إثبات وجود هذه الهوية وهذه الجماعة البشرية ومن الروايات التي سلكت هذا الاتجاه رواية "**أم السعد" "لغسان كنفاني"** التي اهتمت اهتماما بالغا بإبراز خصوصية اللهجة الفلسطينية داخل النسيج اللغوي للرواية. والحقيقة أن الرواية الفلسطينية لم تكتف بهذه الأنساق فقط، إذ عنيت أيضا بتوظيف نسق الأكلات التراثية كالجريشة، الحراق أصبع، البصارة، القراصية ...، ونسق الفنون الشعبية كالدبكة والعزف بالربابة، والأهازيج التي منها أهازيج موسم الحج والحصاد والأفراح وغيرها وقد تجسدت بشكل جلي في ثلاثية عبد الكريم العيساوي" (وائل و بدر، 2017، صفحة 206، 209، 216).

الخاتمة:

ومما تقدم نستنتج أن الإبداع الروائي الفلسطيني احتفى بتسريد الهوية الفلسطينية ونجح في جعلها استراتيجية للرد بالكتابة على المحتل الصهيوني، معتمدا في ذلك على توظيف جملة من الأنساق الهوياتية منها: نسق التاريخ، نسق المكان، النسق الثقافي بما يحويه من أنساق تتضافر لتؤكد على خصوصية هذه الهوية الصامدة التي تبقى مجالا يستوجب منا كباحثين عرب البحث والدراسة.

قائمة المراجع:

- أحمد حسين حسنين: لغة التعليم وتأثيرها على الهوية العربية دراسة ميدانية على عينة من الطلاب المصريين في ظل أنظمة تعليمية متباينة، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات التعلم والترجمة والمصطلح، مجموعة مؤلفين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2013.

- أليكس ميكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 1993.

- بلال الشوبكي: الهوية الفلسطينية من التشتت ومحاولة الاستئصال إسرائيليا إلى تصنيع هويات بديلة فلسطينيا، ص191 ضمن كتاب قضية فلسطين ومستقبل المشروع الوطني الفلسطيني.

- تميمة كتانة: المكان في روايات إميل حبيبي، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، عمان-الأردن، 2017.

- خير الدين عبد الرحمن الفن التشكيلي العربي ما بين جذور واغتراب، أمواج للطباعة والنشر، عمان-الأردن، ط1، 2015.

- دعاء وائل يوسف بدر: بنية السرد الروائي في ثلاثية أرض كنعان للسبعاوي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية-غزة، 2017

- رياض كامل: اللغة المكان والزمان في الرواية العربية الفلسطينية، مجلة الحوار المتمدن، متاح على الرابط: http://m.ahewar.org اطلع عليه بتاريخ: 2023/10/10 على الساعة: 22:00.

- زاهي حواس: آثار وأسرار، ج1، دار نهضة مصر، مصر، ط1، 2007.

- سهام السامرائي: رواية الأرض والتاريخ والهوية، قراءات في رواية عمكا لسعدي المالح، دار غيداء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط 1، 2015.

- عبد الحميد بورايو: في الثقافة الشعبية الجزائرية، التاريخ والقضايا والتجليات، رابطة الأدب الشعبي لاتحاد الكتاب الجزائريين، دار أسامة للطباعة وللنشر.

- عبد الفتاح القلقيلي وأحمد أبو غوش: الهوية الوطنية الفلسطينية، خصوصية التشكل والإطار الناظم، بديل المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين،2012

- عبير مروان خليل سياج: صورة البيت في الرواية النسوية الفلسطينية (1948-2014)، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2022

- عليان عليان: منظمة التحرير الفلسطينية من كيانية التحرير إلى استراتيجية التسوية والاعتراف بإسرائيل(1964-1989)، الآن ناشرون وموزعون، عمان-الأردن، 2022.

- لونيس بن علي: الهوية الثقافية من الانغلاق الإيديولوجي إلى الانفتاح الحواري قراءة في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك: للروائي الجزائري عمارة لخوص، ص 175، ضمن كتاب: المحكي الروائي العربي أسئلة الذات والمجتمع لمجموعة من المؤلفين.

- مازية حاج علي: الهوية وسرد الآخر في روايات غسان كنفاني، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2016-2017.

- مجدي المالكي: التحول في الهوية الفلسطينية وتجلياتها في ضوء تشرذم المجتمع الفلسطيني منذ عام 1948، ضمن كتاب قضية فلسطين ومستقبل المشروع الوطني الفلسطيني، الجزء الأول في الهوية والمقاومة والقانون الدولي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مجموعة مؤلفين، الدوحة- قطر، ط1.

- محمد الكوخي: سؤال الهوية في شمال إفريقيا التعدد والانصهار في واقع الإنسان واللغة والثقافة والتاريخ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، 2014.

- منى المصدر: تعذُّر ترجمة الكوفية الفلسطينية، متاح على موقع دار الفكر، https://fikr.com/blogs/new اطلع عليه بتاريخ: 2023/10/10 على الساعة 22:30.

-عواد أبو زينة: أصوات من الحصار رواية الضفة الغربية وقطاع غزة 1993-2005 المضمون والبناء، منشورات إي كتب، لندن، 2011

-غالب الفريجات: العولمة والهوية في الثقافة، الآن ناشرون وموزعون، 2019.